الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

أسـئـلـة في صـيـانـة الانـسـان وبـنـاء الـدولـة

علي حسن الفواز

هل يمكن للعرب ان يؤسسوا دولة مثل سويسرا لا تشتري السلاح بقدر ما تشتري بالونات الهواء وكاسيتات اغاني البوب؟ وهل يمكن للعرب أن يفتحوا حدودهم وقلوبهم على بعضهم البعض على طريقة دول الاتحاد الاوربي دون عقد داحس والغبراء وتخريجات نظرية المؤامرة؟ وهل يمكن لهم ان يحلّوا مشاكلهم السياسية والعقائدية والطائفية مع معارضاتهم المأزومة دائما على طريقة ما أنجزه الايرلنديون البروتستانت مع خصومهم الكاثوليك وميليشيات الجيش الجمهوري الايرلندي السري؟

هذه الأسئلة ليست نزوعا أوتشريحا في فنطازيا السياسة، وليست محاولة في اثارة اسئلة غرائبية في فن اللامعقول، لكنها وببساطة شديدة تداعيات او احلام ما بعد المحنة دائما، اذ يتحول اصحاب المحنة وبعد سقوط الفاس على الرأس الى حالمين بامتياز والى باحثين عن حلول طهرانية وعرفانية واخلاقية تنقذهم من مصائبهم، وربما تحرضهم على قراءة كل مرجعيات المحن في التاريخ والثقافة والسياسة الفقهية والتأويلية ومفهومات الثنائيات القهرية للحاكم والمحكوم والمواطن والقائد ومابينهما من حقوق مضاعة وتاريخ مسكون بالحرمانات الطويلة ازاء أحكام اولي الامر الرموز والقادة، تلك التي صنعت اشكالا معقدة للتابعية، او ربما اجتهدت في ايجاد طرائق للتلذذ بها او النزوع لممارسة لعبة جلد الذات بطرق اكثر مازوكية.

الحديث عن علاقة العرب بدولة مثل سويسرا هو حديث في اصلاح ذات الشأن، فسويسرا دولة ليست نفطية لكن كل اموال نفوط العالم تذهب اليها، وهي ليست في منتصف الكرة الارضية لكن العالم كله يضبط وقته على الساعات السويسرية، وهي ليست دولة سياسية بالمعنى الاشهاري والثوري والامبريالي للسياسة، لكن العالم يضبط سياساته وقوانيه واحكامه ومفاهيم علاقاته الدولية والصحية على الارض السويسرية دائما. وهذه المفارقات العجيبة تدعونا للتساؤل، هل ان سويسرا هي دولة خالصة للبنوك العالمية؟ وهل انها دولة لضبط الوقت الكوني في ساعاتها الشهيرة فقط؟ وهل هي دولة اتفق العالم ومحاربوه على جعلها موطن الثقة العمومية لكي تكون ارصدتهم المعلنة والسرية في حاضنة هذه الدولة دون خشية من قراصنة او سرّاق بنوك او تزوير عملات او تبييض اموال؟ انها كذلك، لكنها اصلا دولة (إنسانية) أجمل ما فيها قيم المواطنة، وكل ما فيها دقيق ومنظم وعادل وحضاري ومسالم بدءا من الانسان ذاته وصولا الى طبائع النظم والقوانين والاعراف والحسابات، وهذ ما يجعلها لاتحتاج الى جيش عرمرم، ولا الى اجهزة مخابراتية بحجم CIA، KGB لمراقبة كل شاردة وواردة وحبس انفاس في ذهابهم وايابهم ونومهم ومعرفة مافي جيوبهم ورؤسهم، ولا لاجهزة خاصة لمتابعة تطبيق شروط الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. لانها تملك نظاما داخليا واخلاقيا للرقابة.

ان سويسرا دولة لم تنزل من السماء! ولم يدخل المقدس الكنائسي في صناعتها بقدر ما صنعها الانسان ذاته، الانسان الحضاري الذي آمن وادرك ان الحياة تؤسس على التعاون والحوار والاحترام والشراكة والصدق والمسؤولية والارادة، وليس على الانقلابات والكراهيات وتعقيم افكار الاخرين بالمطهرات وكبس انفاسهم وطردهم من الحراك السياسي والانساني، لان الحياة المتحركة والافكار المتحركة المتنافذة مع بعضها البعض هي وحدها الصالحة للري والوضوء والغسول وماعداها فهو راكد وفاسد...لذا نحن بحاجة حقا الى الدرس السويسري في انشاء الدولة وتوظيف الاشياء الصالحة في الاماكن الصالحة.

وبصدد التجربة الاوربية وبرنامج اتحادها الاوربي وانجازاتها خلال سنوات قليلة في صناعة استثنائية لمفاهيم الشراكة والتوحد والحوار الحضاري، نجد ان هذه الصناعة باتت علامة لتأكيد فكرة التحضر، اتفاقية اطارية او بينية الى برامج عمل والى تنمية وعمق وعي المؤسسة الاوربية الرسمية والمدنية لمسؤولياتها في اسناد أنسنة مشروع الدولة والمجتمع والمؤسسة والمواطنة، فضلا عن العمل على ايجاد قاعدة اقتصادية متينة للتحضر، تلك التي جاءت عبر اصدار عملة مشتركة له هوية ولها قيمة وقوة تداول يمكنها من السيطرة والمنافسة والحضور مع العملات الاخرى خاصة مع العملة (الامبريالية) الدولار الصانع االعتيد للاوهام والاخيلة والغوايات.

لقد تداولت النظريات القومانية بان العرب نحن امة خالدة تاريخية وساحرة ولها جغرافيا طوبوغرافية وروحية،وهي امة بلغة بهية ساحرة، لكن هذه الامة للاسف لم تزل تعيش خارج التاريخ بمازوكيات القهر الاقتصادي والقهر السياسي ، ولم تشرعن مايؤكد انسوية العلاقات داخل الفضاء في العمل والثقافة والسياسة والتعليم، رغم هيمنة اللغة والمقدس والحروب المشتركة والمخاوف المشتركة والاعداء المشتركين، بدءا من عدم عقد اية اتفاقية من اتفاقيات و برامج فاعلة في الاجندات الاقتصادية والسياسية، ناهيك عن غياب هذه الاتفاقيات بين الجامعات العربية العتيدة منذ عام ١٩٤٥ وانتهاء بالايام المعاصرة المفتوحة على احتمالات لاتنتهي، لا في الحرب ومحنها الكثيرة، و لا في الثقافة ولا في السياسة ولا في الاسواق ولا حتى في اخلاقيات المطارات، تلك التي ندخل إليها مثل الأغراب مراقبين بالكاميرات الامنية شديدة الحساسية! ونخرج منها دون وداع وربما بشيء من التشفي كما يحدث الان في المطارات وعند الحدود العربية. لم تتحوّل اية حية، الملفات كثيرة والرفوف عامرة، ومهيمنات المراقبة والتلصص وشحن غلو اء الحروب والارهاب والتكفيري حاضرة في كل مكان، حتى بات الهاجس الامني يطاردنا كاشباح..مهنية التنفيذ الاخلاقي الحضاري عاطلة والحمد لله، نعاني من فوبيا المختلف والمتعدد، مثلما نعاني من عقدة الخواجة دائما كما يقول الاخوة المصريين ومن هيمنة اللكنات وهيمنة الشعر الاشقر والثقافة الصفراء، عصابيون حدّ الهوس في امور الذاتوية، لكننا شرهون جدا في امور العامة العربية، نصف عمالتنا المستوردة من شرق اسيا وخبراتنا المستوردة من غرب اوربا، وما بين هذا الشرق والغرب، تسقط العمالة العربية وتعاني الفقر وتدني الخبرات وسقوط برامج السوق العربية المشتركة، وتكافل الارادات والمسؤوليات، لان النخب العربية والحكومات العربية مازالت تنظر بريبة الى عروبتها اولا، وما زالت تخشى هيمنة السيد والاخ الكبير صاحب الوصايا الغربي والامريكي من ان تؤثر التنمية العربية والسوق العربية المشتركة والتكافل العربي عل خلق قوة اقتصادية وسياسية اقليمية تؤثر على برامج التسويق العالمي ونظام التجارة الحرة ، وحركة البضائع الغرب امريكية في الاسواق العربية التي مازلت لحد الان اكبر سوق استهلاكي للبضائع الغربية واليابانية والاسلحة الامريكية والفرنسية والبريطانية والروسية، فضلا عن طبيعة التوازنات الصراعية في المنطقة بين العرب واسرائيل. الاتحاد الاوربي ورغم (تبلبل) اللغات والمرجعيات القومية بين حواضنه ظل هو الاتحاد المهني والسياسي والذي مازال يسهم في انجاع النشاط الاقتصادي والمالي بين دول الاتحاد في التجارة البينية وفي البرامج المشتركة بمعدلات فاقت التصور، اذ تمكنت العملة الاوربية (اليورو) من ان تضع الدولار في حرج شديد، نجحت برامجه وتطبيقاته في خلق بيئة ثقافية وسياسية وسياحية واسعة وفاعلة فتحت الابواب للمواطنين من اوربا للتزاور وتبادل المنافع الثقافية دون رقابات او فيزات ودون اسئلة امنية بائسة ومريرة، حتى بات المواطن الاوربي يضع هذه الاسئلة ان مارسها احمق ما بمثابة تجاوز على حقوقه الشخصية والدستورية.

الاسئلة الذي نطرحها هنا، كيف يمكن لنا ان نستفاد من تجارب الاخرين ونتخلص من عقدنا الامنية ونظرية المؤامرة الساكنة تحت جلد أي رجل أمن في المطار وعند مفتشي الحدود وعند رئيس الدولة في آن معا، وكيف يمكن لنا ان نلتقي بشفافية وبمواسم هادئة دون ان نلتقي فقط عن المحن؟ كيف نؤسس لثقافات مدنية ولحقوق مدنية تنبذ فكرة الضغائن وازمات الحدود المفتعلة والخوف من الجيران دائما، وان نورط ميزانياتنا المسكينة والمنتفخة من اسعار نفط الازمات والذاهبة حتما الى تنميات مغشوشة وربما تنميات استهلاكية، ولم تذهب بصدق وبشكل برامجي الى تنميات ثقافية وبشرية تؤسس لبرنامج طويل الامد لثقافة البناء والحوار والحداثة والتحضر العميق وتعزيز قاعدة المواطن (العمدة) الذي يشبه المثقف العمدة كما يقول اصحاب نظريات الحداثة، لان هذا المواطن/ المثقف العمدة هو الجين المتحرك في صيرورة الفعل الحضاري، اذ لانفع من السياسيين الجاهزين والثوار الجاهزين، لانهم اشبه بالعطارين الذي يعرفون جاهزية الوصفات وثبات جرعاتها للمكان والجسد العليلين ...

هذه الثقافة هي الطريق السحري والواقعي والعلمي لكسر حلقات الوهم العالق في الذاكرة العربية منذ ارخبيلات الرمل الى دول المدن الاستعارية والفارغة من الروح، وهي الفعل الذي يمكن ان يصنع لنا اجيالا من المفكرين والعلماء والثوار الذين يمكنهم ان يضعوا المكان والجسد العربي خارج ازمته السريرية باتجاه ازمة السؤال الحضاري والمعرفي المشرعن للحراك النبيل . ولنا في حديث المشاكل والصراعات العربية العربية في نسخها الطائفية والقومية خير دليل على عمق ازمة الوعي وعمق ازمة الهوية وعمق ازمة المرجعيات، ولعل دروس ماتركته الحروب الثانوية في اوربا وداخل حاضنة العقل المسيحي أثر كبير ليس في المزيد من اراقة الدماء ،وانما في المزيد من تدمير فكرة الدولة الحضارية التي يمكن تكفل الحقوق الانسانية والدستورية للانسان، مع اعطاء المجال للحوار لكي يكون هو الفيصل في كشف الغاز وتعقيدات الصراع. فالازمة هي ازمة صراعية بين قوى كان لها سياقها التاريخي واشكالاتها في الزمان والمكان ، ومثال الازمة الايرلندية هو صورة اشكالية لهذا الصراع، اذ اقترنت اصلا باشكالات وتداعيات الاستعمار الانكليزي القديم للشعوب من عقود طويلة مع الشعوب في اوربا وافريقيا واميركا ومنها الشعوب العربية والشعوب البريطانية في اسكتلندا وايرلندا وويلز، لكن الاصوليين الكاثوليك الايرلنديين كانوا اكثر شراسة في مواجهة الاستعمار الانكليزي ذي النزعة البروتستانتية وحملوا السلاح لسنوات طويلة حتى بروز ما سمي بظاهرة الجيش الجمهوري الايرلندي السري وحزب الشين فين والذي احرج الدولة الانكليزية كثيرا واوقع في جنودها ورجالاتها ورموزها الخسائر الكبيرة.

ادراك معطيات الواقع وتحولاتها وشروطه اعطى للعقل السياسي الايرلندي دفعا باتجاه تبني النضال السياسي والفكري لنيل الحقوق المشروعة والتخلي عن الصراع المسلح المجرد والعشوائي والذي لا يترك سوى الخسائر البشرية والمعنوية ويضيع اية فرصة لبيان جوهر هذا الصراع واليات معالجاته، وبالفعل ترك المحاربون طريقتهم (الواحدية) في فرض شروطهم واتجهوا الى الحوار الجاد وبضمانة دولية انكشفت من خلالها الكثير من الاشكالات والاسرار والحقوق المغموطة ، ونال الجمهوريون الايرلنديون الكثير من حقوقهم وكسبوا استحسان العالم بهم ، فضلا عن ان خطوتهم اسهمت بشكل كبير في خلق هوامش واسعة للتنميات الكبيرة داخل المجتمع الايرلندي والاوربي عموما، والتعاطي مع ازمات التاريخ في ضوء اشكالاتها وسياقاتها وربما يرى البعض ان يضعها في (ثقافة المتحف)

إزاء هذا ما الذي يمكن للعرب وللعراقيين ان يصنعوه كبرامج وطموحات في معالجة الكثير من الاشكالات الصراعية في اطار سياقي موضوعي وعلمي بحثا عن حلول تؤكد حقيقة ان الارادة والمسؤولية هما الاساسان في بيان اهمية تحديد مرجعيات هذه الاشكالات الصراعية والبحث عن معالجات ناجعة لها بعيدا عن حساسيات وعقد الماضي ودون شروط مسبقة، اي انها تخضع لحوارات الفضاءات المفتوحة التي تشرعن للقانون وللوعي وللدولة الحضارية التي تكفل الحقوق وتحمي الهويات، لان الصراع وشيوع ثقافة المحنة ،وتعطيل مناطق الحوار هي التي تؤججكل الثقافات النكوصية والعنفية باعتبارها ثقافات الدفاع عن النوع.. ان قراءة التجربة الايرلندية ليست لازمة لاحد، وقد يعترض عنها البعض لهذا السبب اوذاك لكنها تجربة حية كان الدم والخراب هو فضاؤها المباح، وحين ادرك المحاربون واصحاب الخنادق ان حربهم هي دوامة لاتنتهي وانها تورث البغضاء للاجيال القادمة، ادركوا ن الحوارالحضاري والانساني والتفاهم وفتح الابواب والشبابيك والاجندات هو الاصوب في غسل القلوب والشوارع قبل نزع الاسلحة التي انتجها الانسان لحمايته ولادامة وجوده لكنها جعلته الصانع الاستثنائي لحروبها الكونية ،،فضلا عن كون هذا الحوار الحضاري هو الاساس في صنع ضرورات صيانة الانسان ذاته وبناء الدولة الجديدة. ان الدرس السويسري والدرس الاوربي والدرس الايرلندي هي دروس قد تحتاج بعض النخب السياسية لوضعها على منضدة الكلام وليست منضدة الرمل على طريق المحاربين !! ،لقراءة ما فيها من دروس وعبر تعزز الكثير من دروس تاريخنا القديم الجليل في ادراك ان الايثار والتضحية والوعي باهمية الجماعة في بناء حياة صالحة للمعيش والرفاهية تمثل جوهرا ينبغي الكشف عن لمعانه بعد ان دفنته الحروب والنزاعات والصراعات في طين الامكنة القريبة ..

حـــان وقـــت إحـــــراق داروين؟

عبد الكريم يحيى الزيباري

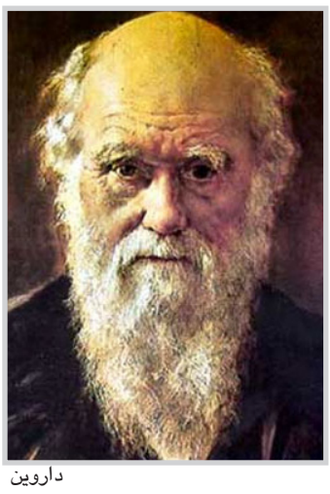

داروين

سألني صديقي الصحّافي: هل تقرأ مجلة العربي من الغلاف إلى الغلاف؟ فأجبته بالنفي، فقال: أقرؤها من الغلاف إلى الغلاف وهي غذائي الثقافي الشهري، أنا مشترك، ولكني أتصفح المجلة وأقرأ من المقالات ما يعجبني ويوافق ميولي، لكن وبعد هذا الحديث قررت قراءتها بدءا من الغلاف، وهي تصل مدينتي بعد منتصف الشهر، والحمد لله على وصولها، لأنني قرأت أنها لا تصل إلى الجزائر، وتوقفت عند مقالة الدكتور محمد ضاهر(التطور)والتي جاء فيها:

في ١٨٣١/١٢/٢٧ أبحرت سفينة الأبحاث الحكومية "بيجل"، وعلى متنها فريق من الباحثين بينهم تشارليز داروين(١٨٠٩-١٨٨٢)، لمسح شواطئ أمريكا الجنوبية، وفي ١٨٣٦/١٠/٢ عادت، أي خمس سنوات تقريباً، ويقول الدكتور محمد ظاهر أنّ داروين(التزم الصمت عن نتائج أبحاثه ٢٢ عاما) ولاحظتُ الأمانة العلمية وغيابَ النرجسية، في قول داروين عن نفسه(وبعد مضي خمس سنوات من العمل، سمحتُ لنفسي أن أتأمّل في هذا الموضوع.. وأنا أرجو المغزرة إلى التطرق إلى هذه الأمور الشخصية، وأنا أقوم بتقديمها لأبيّن أنني لم أكُنْ في عجالة للوصول إلى أي قرار، وقد قارب بحثي الآن ١٨٥٩ على الانتهاء، ولكن بما إنّ إتمامه سيستغرق مني عدة سنوات أخرى، وبما إنّ حالتي الصحية بعيدة كل البعد عن القدرة، فقد وجدتُ نفسي مضطراً لأنْ أنشر هذه الخلاصة، كما كنتُ مدفوعاً إلى فعل ذلك بشكل أكثر خصوصية لأنّ السيد والاس الذي يدرس التاريخ الطبيعي لأرخبيل الملايو، قد توصل بالكامل إلى نفس الاستنتاجات العامة التي توصلت إليها)ثم يقول عن كتابه(هذه الخلاصة التي أنشرها، هي بالضرورة ليست كاملة/ تشارلز داروين- أصل الأنواع- ترجمة مجدي محمود المليجي- المجلس الأعلى للثقافة- ٢٠٠٤- القاهرة- ص٥٥- ٥٦). فالوقت لم يكن كافياً لإكمال أبحاثه، وتخوّف أن يصبح اكتشافه قديماً، فسارعَ إلى نشره، ولو لا ذلك لظلّ يبحث خمسين سنة أخرى، ثمّ يُرْجعُ ظاهر سبب صمته إلى ثلاثة احتمالات الأوّل لجمع المزيد منَ الحقائق والقرائن والأفكار، والثاني لرغبته بعدم المس بمشاعر صديقه قبطان السفينة "بيجل" لأنه كان من المتديّنين، والثالث هو المناخ المحافظ والجمود الديني اللذين كانا مسيطرين يومئذ ضد العلوم الطبيعية. لو فرضنا جدلا أنّهُ انتهى من بحثه فعلاً، فهل يعقل أن يترك البحث طيلة ٢٢ عاماً دون تنقيح ومراجعة وحذف وإضافة؟ ولا منطقية الاحتمال الثاني، نعتقد أنّ الثالث خاضعٌ للتطورات الاجتماعية، وعلى العكس كانت الأجواء بداية القرن التاسع عشر تميل إلى محاربة سلطان الكنيسة، وكتابه معول هدم لسلطة الكنيسة، وكان طبيعياً أن تتهمه الكنيسة بالكفر والإلحاد، ولكن الكنيسة كانت قد فقدت آنذاك أيّة سلطات قضائية أو تنفيذية، وكان ردّ داروين عنيفاً متهما الكنيسة بالجهل والتخريف ومحاربة العلم بحقائقه ونظرياته، وإنّما جاءت الاعتراضات من الجماهير لما عزّ عليها فكرة أجدادهم القرود، فثار بعض العلماء ضده، ثمّ شيئاً فشيئاً مال الجمهور إلى داروين ضد الكنيسة، وهناك نص في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" في البروتوكول الثاني يؤيد دعم رؤوس الأموال لداروين ونظريته، للخلاص من سلطة الكنيسة، ولا أحد ينكر التطور، وكانت ملاحظاته صائبة، ولكن استنتاجاته كانت بمجملها خاطئة، ليس لها أساس علمي، فرضيات غير قابلة للإثبات، وكيف سيثبتُ أنّ الإنسان تطوّر عن جرثومة صغيرة قبل مئات ملايين السنين؟ وكيف يفسّر بقاء الغزال من عائلة الوعل القوي مع أنه أقل قوة واحتمالا؟ وكيف يفسّر بقاء مليارات الكائنات أحادية الخلية، والتي تلعبُ دوراً أساساً في مدّ الكون بالغذاء والهواء؟ وكيف يفسر بقاء جنس الفراشات مادام البقاء للأقوى؟ ولقد أخذ هتلر(البقاء للأصلح/ للأقوى)كمبرّر علمي للنازية، وانقسمَ العلماء إلى ثلاث فرق، كما يحدث دائماً مع كل فكرة جديدة حتى يثبت بمرور الزمن صوابها أو خطؤها: واحدة تؤيد وتتحمس، وأخرى تعارضُ وتندد، وثالثة تحاول التوفيق بين النظرية والدين. لقد تطوّع داروين خمس سنوات في رحلة بحثية، بدون مرتب، وعاد ليعكف أكثر من ٢٢ سنة على مراجعة ملاحظاته التي دونها في الرحلة، وبحثٍ عن مراجع ويفكّر في النتائج، ولا يعني أنّهُ كتب نظريته بعد يومين من رسو السفينة بيجل على سواحل إنكلترا، بل استغرقته ٢٢ عاماً، ليخرج بها في ذلك الشكل، ويقولِ سمير حنا صادق(وسبقه في افتراضه أصلاً واحداً للحياة، طاليس في القرن السادس بعد دراسته للحياة في بحر إيجه، وافترضَ لامارك(١٧٤٤- ١٨٢٩) أنّ التغير الذي ينتاب الأشكال المختلفة من الحياةِ ينتجُ مباشرةً عن ضغوط البيئة فالزرافة مثلاً لا تجد غذاءها إلا في أوراق الأشجار المرتفعة، تناول داروين إمكانية إحداث تغيير في المملكة الحيوانية والنباتية، ولكن ما حيّره هو كيفية حدوث ذلك في الطبيعة، إلى أن خطرت له يوماً فكرة الصراع)ولقد استندَ داروين إلى لامارك وأشادَ ببحثه الذي نشره عام ١٨٠١، والذي أضاف إليه الكثير ١٨٠٩، وأصدر بعد ذلك كتابه(التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقارية/١٨١٥) ولقد نقلت هنا ما لم ينقله الدكتور محمد ظاهر من المقدمة التي كتبها صادق، يقول ظاهر(وفي ١٨٥٨/٦/١٨ تلقى بحثاً مبتكرا من العالم الإنكليزي ألفرد راسل والاس(١٨٢٣- ١٩١٣)مصحوباً برجاء لداروين أن يقرأ البحث ويعطي رأيه في النظرية التي يتضمنها، وإذ هي النظرية نفسها التي توصل إليها داروين عن حقيقة التطور فاستنجدَ بصديقه بيل وكتبَ إليه رسالة(لم أرَ في حياتي تطابقاً أكثر إثارةً للدهشة من هذا التطابق في الأفكار والنتائج مع بحث والاس، ولو أنّ والاس اطلع على البحث الذي انتهيتُ إليه في عام ١٨٤٢ لما استطاع تلخيصه بطريقة أفضل مما عرضه في بحثه)مجلة العربي- العدد: ٦١٥- ص١٣٧. يقول بأنّهُ انتهى منه عام ١٨٤٢، وكتابه "أصل الأنواع" صَدَرَ في ١٨٥٩/١١/٢٤. فيكون فارق الزمن ١٧ سنة فقط، لكنّه في عام ١٨٣٩ نشر كتابه(رحلة عالم طبيعيات). ويقول صادق(كان من الممكن أن يتأخر نشر كتابه أكثر من ذلك، ولكن في عام ١٨٥٤ وصلته مقالة من صديق يعمل في الملايو ويدعى ألفريد رسل والاس.. واكتشفَ داروين أنّ والاس قد تمكن في صفحات قليلة من تلخيص أهم ما وصل إليه هو في دراساته المستفيضة التي استمرت طويلاً، صُعِقَ داورين وحاول البعض إقناعه بتأجيل نشر ورقة والاس إلى أن ينشر كتابه، ولكنه قال إنّهُ يفضل حرق كتابه على أنْ يفعل هذا العمل الدنيء/ أصل الأنواع- ص٢١). ورأي الدكتور ويلس(إنّ ما يتم عمله بواسطة المهارة، يبدو أنّه يتم عمله بنفس الكفاءة بواسطة الطبيعة/ أصل الأنواع- ص٤٠).

إذا كانت خريطة الجينات الوراثية للإنسان قد تمّ اكتشافها، فإنّ الأبحاث لا زالت مستمرة، وخريطة جينات قرد الشمبانزي لم تكتشف بعد، فكيف نقارن بينهما؟

؟! ألا يجب من أجل إجراء مثل هذه المقارنة اكتشاف خريطة جينات الشمبانزي وتثبيتها بعد دراسات ستستغرق أيضا سنوات عديدة؟

يقول البروفيسور (ميشيل دانتون) وهو من العلماء المشهورين في علم الأحياء المجهرية (Microbiology) في كتابه (التطور: نظرية في مأزق) ما يأتي(في عالم الجزيئات والأحياء المجهرية لا يوجد هناك كائن حي يُعَدُّ "جدًّا لكائن آخر، ولا يوجد هناك كائن أكثر بدائية، أو أكثر تطورا من كائن آخر)(انظر إلى : "Michael Denton Evolution: A Theory in crisis " صفحة ٢٩٠ - ٢٩١) لكن الأحياء مُصَنَّفة تحت ممالك بحسب تطورها، من اللبائن التي هي الأكثر تطوراً، إلى البكتريا التي هي أقل تطورا، فالبكتريا ليس لديها أجهزة هضمية كاملة ولا تنفسية، وبيئة البكتريا متنوعة جدا، فهي قادرة على العيش في أيّة بيئة، حتى ضمن بيئات ذات نسب عالية بالفضلات النووية والكبريتية الحمضية، ويوجد عادة حوالي عشرة مليار خلية بكتيريّة في الغرام الواحد من التربة ومئات الآلاف من الخلايا في الملمتر المكعب من ماء البحر، وتلعب البكتيريا على بساطة أجهزتها دورا أساسيا وحيويا في تدوير المغذيات البيئية، فالعديد من الخطوات المهمة في دورة التغذية تتم بوساطة البكتيريا، أهم هذه الخطوات تثبيتِ النتروجين في الغلاف الجوي. وهكذا دائماً تكون التفاصيل الصغيرة هي الأهم. وفي العدد رقم ٢٢٣٥ من المجلة العلمية الأمريكية المعروفة (New Scientist) الصادرة في ٢٢/حزيران/٢٠٠٠م تقول بأن هذه النظرية في تراجع مستمر في العالم، حتى أنها وضعت على غلافها عنوان (حرق داروين Burning Darwin) وأدرجت داخل العدد خريطة للعالم بينت فيها البلدان التي تتراجع فيها نظرية داروين بسرعة وتتقدم فيها (فكرة الخلق Creationsm). وهذه المجلة تطلق صفارة الإنذار وتقول لأنصار هذه النظرية: "إن العلماء على وشك أن يحرقوا داروين".

لحظات حرجة في تاريخ المعرفة والعقل الإسلاميين

يوسف محمد بناصر

(١-٢)

لقد ورثت الثقافة الإسلامية عن الثقافة العربية الجاهلية المنهج الشفاهي في أخذ المعارف، وعلق في أذهان الصحابة بعد ذلك أن العلم والمعرفة تنال بالحفظ كما حفظت المعلقات السبع وأساطير العرب وتاريخ الحروب، وكذلك كان الأمر مع كل ما أنتجه وجمعه العقل المسلم -خصوصا الصدر الأول- من علوم فقهية وحديثية على وجه الخصوص، وجاء منع النبي عليه واله الصلاة والسلام عن كتابة الرواية الحديثية؛"من كتب عني شيئا فليمحه" ليدعم استمرارية الثقافة الشفهية فصدقوا والتزموا -كما التزمت الأمة من بعدهم ردحا من الزمن- بقوله:" إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحتسب"، فاستند العامة والخاصة على تلك الرواية للمنع، ثم جاء سلوك وعمل بعض الصحابة ليزكي بشكل أعمق تلك الأحاديث ليحولها المجتمع المسلم إلى ثقافة يومية ممارسة ومشرعنة تمتد زمانا، فكان ابن عباس رضي الله عنه يقول:" إنا لا نكتب العلم ولا نكتبه" وقوله:"إنما ضل من كان قبلكم بالكتب"، وكتب عمر بن الخطاب إلى الأمصار آمرا:"من كان عنده شيء فليمحه"،حتى أن ابن أبي موسى الأشعري قال:"كتبت عن أبي كتابا كبيرا فقال: ائتني بكتبك فأتيته بها فغسلها" وكثيرا ما كان يقول لمن يأخذ عنه:"العلم احفظوا عنا كما حفظنا"، وقيل شعرا في فضل الحفظ مالم يقل عن القراطيس وحفظها للعلم؛ قال الشاعر:

استودع العلم قرطاسا فضيعته

و بئس مستودع العلم القراطيس

إن الدارس لتاريخ الكتب في الثقافة والحضارة الإسلاميتين ليأخذه العجب مما قد يجد من اغتيالات وإعدامات ومصادرات للكتاب من طرف رجال السلطة أو العلم أنفسهم؛ وفي فترات متباعدة من التاريخ، مما هو راجع بالأساس إلى عدم تحول الوعي الإسلامي ليقبل بما جاء القران ليؤسس له من ثقافة حفظ الكتاب، ثم بالأساس تمجيد ثقافة اقرأ والقلم والمداد وثقافة:"فليكتب كاتب"..هذا في المقام الأول،أما ثانيا؛ فنجد أن هنالك أسباب متعددة أخرى واهية لتلك الحروب على الكتاب المدون، فبين التي دعت إليها الحمية السياسية والصراعات المذهبية والعقدية، وبين التي حدثت بسبب أزمة نفسية أو اجتماعية أو قبلية لشخص المدون...، فمثلا في سنة (٣١١هـ)؛ حكى "ابن الجوزي" في حوادثها قائلا:"وفي نصف رمضان أحرق على باب العامة صورة ماني وأربعة أعدال(=حمل أربعة جمال)من كتب الزنادقة فسقط منها ذهب وفضة مما كان على المصاحف له قدر". ونقل "المقري" عن "المطمح" أن كتب "ابن مسرة" وهو العابد الزاهد، قد تتبعت بالحرق واتسع في استباحتها الخرق وغدت مهجورة على التالين محجورة..."، ونقل أيضا في كتابه:"نفح الطيب" أن أبا محمد ابن حزم قال عندما أحرق المعتضد بن عباد كتبه باشبيلية شعرا:

"دعوني من إحراق رق وكاغد

وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي

وينزل إن انزل ويدفن في قبري" .

ويتحدث "الصفدي" في ترجمة الحاجب الملك المنصور الأندلسي أنه في سنة(٣٦٦هـ) عمد أول تغلبه إلى خزائن "المستنصر" فابرز ما فيها من صنوف التواليف بمحضر خواصه العلماء وأمر بإفراد ما فيها من كتب الأوائل حاشى كتب الطب والحساب وأمر بإحراقها وطم بعضها وكانت كثيرة جدا فعل ذلك تحببا إلى العوام وتقبيحا لرأي المستنصر.."، وفي أحداث سنة(٥٣٧ هـ)، حكى أبو محمد بن اسعد اليافعي قائلا:"وفيها توفي صاحب المغرب علي بن يوسف بن تاشفين...وهو الذي أمر بإحراق كتب الإمام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي"،وروى "النويري" في ترجمة أبي يوسف يعقوب بن يوسف أمير الموحدين أنه أمر في سنة(٥٨٣هـ) بإحراق كتب المذاهب بعد أن تجرد من الحديث والقرآن، فحرق كتاب المدونة وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، والتهذيب للبرادعي والواضحة..، وقصد من عمله ذاك أن يمحو مذهب مالك من بلاد المغرب، ويحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة"، ويذكر زين الدين عمر بن المظفر بن الوردي في كتابه تتمة المختصر من أخبار البشر انه في سنة (٧٤٤هـ):"فيها مزقنا كتاب فصوص الحكم(لابن عربي) بالمدرسة العصرونية بحلب،عقب الدرس وغسلناه، وهو من تصانيف ابن عربي تنبيها على تحريم قنيته ومطالعته.."

كما تحدث المؤرخون عن بعض المشايخ الذين كتبوا وألفوا الكتب الكثيرة وفي مختلف الفنون فلما ضاقت بهم ضائقة قاموا بإحراقها أو دفنها، ومنهم من قام بغسلها ومحوها وتخريقها بأنفسهم أو بأمر منهم، فالإمام سعيد بن جبير(ت ٩٥هـ)روى "الدينوري" القاضي المالكي في كتاب المجالسة": قال:"أن امراة سعدية قالت: سمعت سعيد بن جبير حين جيء به الى الحجاج دعا رجلا،فقال:"اذهب فاحرق كتبي"، والثوري فيما حكاه الحارثي عنه قائلا:"دفن سفيان كتبه فكنت أعينه عليها فدفن منها كذا وكذا قمطرة(=ما تصان فيه الكتب)، إلى صدري فقلت: يا أبا عبد الله:"وفي الركاز الخمس"فقال:خذ ما شئت.فعزلت منها شيئا.كان يحدثني منه"، وشيخ المحدثين شعبة بن الحجاج حكى عنه ابنه قائلا:"أوصى أبي:إذا مات أن أغسل كتبه فغسلتها"،وأبو عمرو الكرخي الذي روى الحديث عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وغيرهم من الصحابة، فقد محا كتبه عند موته، وعندما سئل قال:"أخشى أن يليها قوم يضعونها غير موضعها"،كما حكى هشام بن عروة أن أباه عروة بن الزبير قد حرق كتبا فيها فقه ثم قال:"وددت لو أني فديتها بأهلي ومالي"، وكتب أبو حيان التوحيدي -في سنة ٤٠٠ هجرية عندما حرق كتبه- إلى القاضي أبو سهل علي بن محمد الذي يعذله على صنيعه، فرد معتذرا إليه قائلا:"وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع...بعد ذكر الشوق إلي، والصبابة نحو ما نال قلبك والتهب صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي وغسلها بالماء..."، حتى أن أبا حيان قد استشهد بحسن صنيعه في كتبه بما فعله علماء متقدمون عليه مع كتبتهم واعتبرهم أسوة له في فعلته،فقال:"وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم ويعشى إلى نارهم، منهم:أبو عمرو العلاء، وداود الطائي، ويوسف بن أسباط، وأبو سليمان الداراني، وسفيان الثوري، وأبو سعيد السيرفي...".

كأن حرق وخرق الكتب أصبح ثقافة شعبية وطقسا روحيا يمارسه الجهابذة من العلماء -فما بال العامة والجهلاء من الناس في الفتن والحروب وضيق ذات اليد- إما اكرما للكتاب من الوقوع في يد من لا يحفظه ولا يعرف قيمته، أو حزنا على ما آلت إليه أمور العلم وحياة الكاتب، أو توبة مما كتبه ورجوعا عما ذهب إليه في بداية حياته...، وإضافة لما سبق أعتقد أن ما حصل في تاريخ الكتاب الإسلامي كان نتيجة استحكام ثقافة الشفهي على ثقافة المكتوب المدون، فلم ينزل الكتاب منزلته التي يستحقها ولم يعط قيمته، واليوم ما تزال تلك الثقافة متجدرة وممتدة في حياة الأمة؛ فمن النادر أن تجد مكتبة لكل بيت أو قارئا نشيطا ومقتنيا للكتاب، بالرغم من مجهودات الدول والمدارس والجامعات لتكريس ثقافة القراءة والمطالعة، حتى حظيت الدول والشعوب الإسلامية بأدنى الرتب في المقروء والمكتوب والمترجم.

باحث مغربي في الحوار الديني والحضاري

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
٣. لا تزيد المادة على ٧٠٠ كلمة.
ideas@almadapaper.net